السماع الصوفي في الزاوية المامشاوية بتلمسان

الباحثة:أمتير الحسنية
دكتورالية (جامعة تلمسان)

الملخص:

لا يزال السماع أو الإنشاد الصوفي مصدر اهتمام حقيقي يستفهم عنه الباحثين. وعن معناه تقدم الدراسات القديمة و المعاصرة أنه"ذلك الإنشاد المنظم موسيقيا على أساس قصائد ألفها مشايخ التصوف الإسلامي.أما مصدره فيعود إلى طبيعة الكائن البشري ذاته.

إن صوت النبي داود عليه السلام كان سماعه يجلب البشر و الحيوانات وخصوصا الطيور التي كانت تزهق أرواحها من لذة الاستماع إليه.

أما ظهوره في العالم الإسلامي،حدد ما بين القرن الثاني و الثالث للهجرة.و يعتقد أن الشيخ ذو النون المصري المنظر الأول له و هو الذي قام بنشره في العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري.

يكون السماع بعد ذكر الخالق مع العمارة أو الرقص الصوفي مجموعة طقوسية ينشأ عنها الوجد لدى المريدين.و يعتبر أيضا وسيلة تربوية لنفس المريد يلجأ إليها الشيخ المربي ليوصله إلى محو نفسه و الوصول إلى مشاهدة أوصاف الخالق تعالى.

abstract:

The Samaa still has some source of interest that challenges researchers. Among the explanations that provide historical and contemporary studies, we hold it is'' that musically composed song based on written poems by spiritual masters of the Islamic Sufism''. Its origin lies in the human being nature .The songs of the prophet David

attracted both men and animals, especially birds that when listening die of ecstasy.
The Samaa appearance in the Muslim world is relied to the 2nd century or early 3rd century (A.H) and sheikh Dou Noun El Misri would be the precursor who would spread throughout the Muslim world in the 5th century (A.H).
After Dhikr or the invocation of God ,the sufi Samaa with a set of ritual dance cause together the ecstasy of disciples .It's an educational medium of the soul which use the sufi sheikh to send them to their annihilation of their' Ego' and contemplation of an attribute Supreme Being.

مدخل:

من أهم الطقوسات الصوفية لا زال السماع يمثل ظاهرة مثيرة للإعجاب من جهة و للجدل من جهة أخرى لأنه الأكثر ظهورا في التصـــوف و الأكثر غموضا بالنسبة للدارسين و الباحثين غير المنتمين للتيار الصوفي السني في الإسلام.

و حتى نلقي الضوء عليه ارتكزنا في هذه المقـــالة على بعض المؤلفات من مصادر و مراجع و اعتمدنا أيضا على شهادات المنتمين إلى الزاوية المامشاوية الكائنة في مدينة تلمسان و ذلك لرفع اللبس عن ركن -على الأقل- من الحجاب المضروب على هذا الفن الإنشادي الديني و الشعبي في آن واحد.

و سوف نتطرق في هذه المقالة إلى ضبط مصطلح "السماع" لغة و اصطلاحا. ثم ننتقل إلى نشأة هذه الظاهرة ثم نقدم نظرة وجيزة عن وظيفة السماع كطقس صوفي. و بما أننا في ميدان الأخلاق سوف نولي اهتماما بالغا الآثار التي تنجم عن السماع لنصل أخيرا إلى علاقة هذا الأخير و دوره التربوي لدى الشيخ المربي في الزاوية المامشاوية.

1/مفهوم مصطلح" السماع "[1]:

أ/ لغة :

جاء في قاموس المحيط للفيروز باديأن السمع: حس الأذن، و الأذن و ما وقر فيها من شيء تسمعـــه، و الذكر المسموع، كالسماع،و يكون للواحد والجمع: أسماع و أسامع "...[2]

ب/ اصطلاحا :

السماع عند أهل التصوف هو ذلك الإنشاد المتداول بين أهل التصوف و يخص القصائدالشعرية التي ألفها مشايخ التصوف تؤدى بألحان خاصة.وتجده المفكرة آن ماري شيمل السماع أشهر تعبير عن الحياة الصوفية في الإسلام ...[3]

كما أعطى لنا مسمع الزاوية المامشاوية مفهوما للسماع بأنه :" ذكر المدائح النبوية جماعة في الزاوية "[4]

و منهم من يرى بأنه أناشيد يستعملها المريد ليسلك بعض الواردات التي تطرأ عليه من حين إلى آخر[5] و السماع هو قراءة أشعار على صيغة أو لحن غنائي...و هو إنشاد القصائد الصوفية.

و قيل السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة، لأنه وصف يدق عن سائر الأعمال،

---

[1]- يعرف السماع في الدين المسيحي ب (L'Oratorio Spirituel)

[2]- " القاموس المحيط"،مجد الدين بن يعقوب الفيروز بادي، دار المعرفة بيروت،لبنان،ط5 ،2011م ص 638

[3]- الأبعاد الصوفية في الإسلام و تاريخ التصوف" آنا ماري شيمل، منشورات الجمل، بغداد2006ص251

[4]- تصريح السيد غوتي بن قلفاط-فقير و مسمع الزاوية المامشاوية إلى يومنا هذا

[5]- تصريح السيد قدور سبيع مقدم الزاوية المامشاوية و صهر الشيخ المرحوم قدور بن عاشور الزرهوني.

ويدرك برقة الطبع لرقته، و بصفاء السر لصفائه عند أهله "[1].

إن الصوفية القدماء لم يعطوا تعريفا للسماع و إنما قـــدموا مفهوما خاصا حسب تجاربهم و أذواقهم و مواجدهم.

سئل الروذباري عن السماع فقال مكاشفة الأسرار[2] إلى مشاهدة المحبوب"[3] .

"و السماع أسلوب يعمد إليه بعض الصوفيين ليحصل لهم الوجد. نشأ عن تطور مجالس الذكر و ملخصه أن يجتمع [4]

الصوفيون وحدهم- و هم في حالة زهد- ينصرفون مجتمعين إلى التأمل ويكون بينهم مغني أو قوال يترنم بألحان دينية شجية يصحب ذلك إنشاد شعر روحي".[5]

فالملاحظ أن جل التعريفات المقدمة تدل على أن السماع شعر صوفي مغنى يراعي فيه الميزان [6]

لقد اهتم القدماء بفن السماع اهتماما بالغا : تعريفه أصوله ، آدابه وآثارهو لكن ماذا عن تاريخ نشأته؟[7]

---

[1]- الرسالة القشيرية"، ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن،مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت-لبنان،ط1،2000م ص333

[2]- معجم مصطلحات الصوفية"، أنور فؤاد أبي خزام ، ص 167

[3]- يقول التهانوي في المشاهدة :"رؤية الحق يبصر القلب من غير شبهة كأنه رآه بالعين :ينظر المرجع نفسه ،ص 163 .

[4]-المرجع نفسه ص335

[5]- دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية و آثار رجالها عبده الشمالي " "، ص 461.

[6]- تصريح السيد عبد الكريم غفور أخ الحاج محمد غفور من مدينة ندرومة. الميزان (يقصد به الإيقاع أو الوزن).

[7]- خصص القشيري بابا كاملا للموضوع في رسالته

2 /نشـــأته :

لقد اتفق العلماء الدارسون للتصوف كسلوك و اعتقاد و نمط عيش و أخلاق أنه يشكل فنا و قوانين اتضحت معالمها في العالم الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري و أن السماع الصوفي له قواعد ظهر مكتملا مع نهاية القرن الثالث الهجري.

بينما حدّد الهجويري و الكلاباذي نشأة السماع في بداية القرن الرابع الهجري. و في شأن تحديد الفترة التي ظهر فيها السماع الصوفي إلى الوجود فقد اختلف المؤرخون و يعتقد أهل التصوف أن ما يحدث في مجالس السماع وثيق العلاقة بالسنة النبوية الشريفة.

و يعد القرن الخامس الهجري قرنا حافلا بالدراسات القديمة التي نوهت الى تاريخ نشأته، غير أن الدراسات الإسلامية لم تتناول موضوع السماع الصوفي كظاهرة في التصوف تستحق إسالة الحبر، حيث أن معظم الدارسين اهتموا بالجانب الفقهي له و إيقاع الصوت الجميل.

و من مشايخ التصوف من يعتبر الشيخ الجنيد المنظر الحقيقي للسماع ومنهم الشيخ أحمد الرفاعي و الشيخ جلال الدين الرومي الذي يرجع أصل السماع إلى الترتيل المتوازن لسور القرآن الكريم في المدرسة الصوفية في بغداد حيث استعمل أصحابها السماع بانتظام ،و أكد هذا من قبل الإمام الجنيد رضي الله عنه قائلا : إذا كانت الأرواح تحس بنشوة عند سماعها للموسيقى ، ذلك لأنها عرفتها النشأة. "إن النغم الموسيقي يمتزج مع نغم النشأة بحيث أصل الأولى يذكر بأصل الأخرى بالمساواة ويترجمها جلال الدين الرومي بقوله:" عليك أن ترقص على قلبك "[1].

---

[1] -« Le soufisme et la danse chez Djellal eddin Rumi »,Sud. Edition, Tunis,1980 p174

ويرى المفكَر آسين بلاثيوس أن" ذو النون المصري كان من أوائل الذين نشروا السماع في مستهل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) "[1]ويوافقه الرأي لوي ماسينيون .

الشيء الذي أكدته الدراسات الحديثة هو أن البدايات الأولى لظاهرة السماع الصوفي كانت مع حلول القرن الثالث الهجري و استمرت في النمو والانتشار والتبلور بعد ذلك،و بعد انتشار الممارسات الصوفية بمختلف أنواعها.

أخذت الحضرة والسماع الصوفي مكانا بينهم . كما يبدو أن السماع الصوفي نشأ من الحداء[2] .إن الحداء يسكت الصبي عند البكاء، فيصغي إليه، وكان الجمل لا يتحمل قطع المسافات الطوال إلا به، يقول الغزالي :" و الجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة ، و يستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافات الطويلة " [3]و منهم من يرى أن السماع يعود الى نفخ الروح في نشأة الإنسان و أن الروح اللطيفة لم تقبل الدخول في الجسم الكثيف حتى سمعت الموسيقى و في هذا الصدد يشير أهل الزوايا إلى النبي داود عليه السلام و عزفه على المزمار حتى كانت الطير تتأثر بشدى ألحانه عندما تقف على رأسه و عندما يكثر طربها تسقط ميتة. و يحكى أن الجن و الحيوان كانت تتأثر أيضا بالاستماع إليه.

و الإنسان كمخلوق لديه حس،فإذا حزن بكى و تقلصت عضلات وجهه و اشتدت و إذا فرح أو سر تنبسط عضلات وجهه و ربما غنى أو طرب و اهتز ورقص أو وله و يمكن القول أن السماع الصوفي نشأ مع نشأة الإنسان .

---

[1]--« Le soufisme et la danse Op-Cit , p 170

[2]- الحضرة في منطقة أولاد نهار-دراسة تاريخية فنية'قيداري قويدر- مخطوط رسالة ماجستير' ،جامعة تلمسان. ص78

[3]- 'إحياء علوم الدين ،أبو حامد الغزالي ،ج2 ، ص147

و الملاحظ أن مريدي الزاوية يجدون في الكتاب أو السنة و السيرة النبوية دلائل يرتكزون عليها لتبرير ممارسته في جلساتهم.

يقول الشيخ محمد بن يلس[1]:

وَ سَمَـــــاعْ إِخْـــوَانِياًّ يَشْفِــــي صَـــدْرَ الْحــَاضِرِينْ
سَيَظْهــَـرْ فِيهــَا نُـــورْ لِلْإِخْـــــوَانِ وَ الْحُضُــــورْ
شُهــُودُهُـــمْ لِلْمَذْكُورْ فيِ عُمـــُـومِ الْمَخْلُـــــوقِينْ

3 / أنواع السماع حسب الوسيلة المستعملة:

يعتمد السماع الصوفي على الصوت الإنساني فقط أو يكون مصحوبا بالآلة إضافة إلى الصوت أو يعتمد على الآلة الموسيقية فقط:

و ما يهمنا في هذا البحث هو النوع الأول:

1/ السماع القائم على الصوت البشري المعتمد في الزاوية المامشاوية[2] :

قدم الأستاذ عبد الحميد مشعل في كتابه " موسيقى الغناء العربي " دراسة حول تأثير نزول القرآن الكريم في الموسيقى العربية في الإسلام[3]:

" لقد لبست الموسيقى العربية في الإسلام ثوبا دينيا ناصعا يوم نزل القرآن الكريم و سرت تلاوته بالصوت الجميل في النفوس سريان الطهر و العافية في الجسم السقيم. ومن إعجاز القرآن الكريم نظمه على إيقاع موسيقي رائع بسيط على المستمعين و لو كانوا غير مسلمين حتى قال الأجلاء أن قوانين الموسيقى قد لوحظت في القرآن الكريم تامة كاملة. كذلك الشأن في بعض الشعائر الدينية

1- ديوان سيدي الحاج محمد بن يلس جمع مصطفى العشعاشي " مطبعة ابن خلدون تلمسان ص 21

2-) الزاوية المامشاوية(شاذلية –درقاوية) تقع بوسط مدينة تلمسان في درب أولاد الإمام و شيخها الحالي سيد أحمد بن مامشا.

3- موسيقى الغناء العربي"،عبد الحميد مشعل،دار الكتاب العربي،ط1.مصر دت ص16

الأخرى،كالمدح النبوي و الأذكـــار المنغّمة و كالآذان للصلاة و صلاة العيد في ألحان موسيقية ترقق حاشية الروح " 1

و اتخذ الصوفية في طقوسهم الصوت لإنشاد أشعارهم شريطة أن يكون حسنا طيبا وجميلا حتى يتمكن من التأثير في السامعين.يقوم المسمع بالإنشاد مظهرا براعته في الإيقاع الصوتي واحترامه للوزن التي نظمها صاحبها عليها مراعاة في سرعته وإبطائه في الإيقاع للوقت الملائم وقوانين الإنشاد كالوقف في النغمات المتعلقة بالقصائد.

لقد الدارسون لأنواع من الوقف الغريبة و اتخذوا أمثلة كثيرة و متنوعة حول المنشد و القصيدة المنشدة منها:

1- إنشاد لقصيدة مطلقة القافية مقيدة من غير اعتقاد تقييد(تقييد عفوي)
2- أن ينهي المنشد كل قافية ب " إن " الخفيفة لكي يشعر المستمع بانقضاء أو نهاية
3- إنهاء القافية بنقل الحركة من حرف إلى حرف
4- إنهاء القافية بتسكين المتحرك و تحريك الساكن

و كل هذا التفتن في الإنشاد حتى لا يتشابه المنشدون في طريقة أدائهم لكن إشعار المستمع بانتهاء البيت عن طريق الوقف العمدي لا يوافق الشعر العربي القديم المعتمد على وحدة البيت.

و ما هو مهم في الدراسة هو جمال القافية الموسيقية و أجمل قافية في الشعر المنشد هي القافية الموصولة من ناحية الإيقاع و هي مفضلة على القافية المقيدة عند الإنشاد و العناصر التي تعتمد عليها اللغة العربية تختلف عن جماليات أي تشكيل صوتي في أية لغة أخرى.و هذه العناصر هي أصوات المد

1-المرجع نفسه

و اللين " الألف و الواو و الياء و هذا ما يجعل بعض الباحثين يفترضون بأن خاصة " النبر" لا توجد في اللغة العربية إلا في هذه الأصوات الثلاثة.

و رمز للعناصر التي أتى بها بإشارات:

ترميز النغمات الثلاث :

الرقم	ترميز النغمات الثلاث
01	النغمة الهابطة ↙
02	النغمة الصاعدة ↖
03	النغمة الأفقية ←

للمسمّع الحريّة الكاملة في تصور أو اختيار الطريقة التي يتنغم بها شعره. فيصبغه صبغة خاصة فيكون له إيقاعا خاصا به. فنجد الألحان التي لحنها الشيخ قدَور بن عاشور لقصائده الكثيرة مختلفة عن بعضها البعض كليا.

بعد الاستماع المتكرر لبعض النماذج من هذه الألحان تبين لنا أنها لا تختلف كثيرا عن الطبوع الشعبية المنتشرة في المغرب العربي و ألحانها أقرب من الفن الحوزي إلا أن الاختلاف ناتج عن تقدم استخدام الآلات الموسيقية فتضاف نغمات لتفادي هذا النقص.

و حاولنا أن ندرس فيما يخص الفقرات الصوتية الموظفة في لحن الأبيات وطبقناها على مقطع من قصيدة " لما رفع الستور" للشيخ قدَور بن عاشور : تؤدي هذه القصيدة حسب لحن صوتي فقط يختلف نسبيا على آدائها مرفوقة بالجوق الأندلسي:

1/ لَمَّا رُفِـــــعَ السُّتُورْ وَ شاَهـــَـدْنَا اللاَّهوتْ

لَمْمَ رُفِعَ سْتُو--- رْ وَ- شَهَدْنَ لْلاَ هـُـ ـــــــ تْ

2/ فـــَاضَتْ عَلَيْنـــاَ بـــُحوُرْ مـــِنْ عـــَيـــْنِ الْجَبـــــــــَرُوتْ

فَضَتْ عَلَيْناَ بحُـــُ--- ر مـِـ - نْ عَيْنِ لـْ جـَ - بـَ - رُ ـــــ تْ

3/ فَـــآجْتَمَـــعَ نـــُورٌ بِنُورْ تــَلاَشَـــــــــــتِ النــُّعــُوتْ

فَجْتَمَعَ نوُرُنْ بِنـــُ--- رْ تـَ- لَشَتِ نْعـُ ـــــــــــــــــ تْ

و بعدها تنشد لازمة :

لاَ إِلاَهَ إِلاَ اللهْ لاَ إِلاَهَ إِلاَ اللهْ لاَ إِلاَهَ إِلاَ اللهْ

لـَ إِلـَ - هَ إِ لاَ لْلَـــ ـــ هْ لـَ إِلـَ - هَ إِ لاَ لْلـَ ـــــ هْ لـَ إِلـَ- هَ إِ لاَ لْلَـــ -- هْ

حَبـــِيـــبَ اللهْ مُحَمَّـــدْ

حـَ ـــ بـِ بَ لْلـَ هْ مُـــ ـــــ حَمْمـَ ـــــ دْ

حَبـــِيـــبَ اللهْ نــَبـــِيـــناَ

حـَ ـــ بـِ بَ لْلـَ هْ نـَ - بـِ - نـَ ـــــا

4-السماع الصوفي في الزاوية المامشاوية:

لا بد للمسمع أن يملك الصوت الجميل القوي الذي يستطيع من خلاله أن يصل السماع إلى كل مستمع حاضر و يؤثر فيه و يجب أن يكون له طول النفس.

ويقول الدكتور صلاح يوسف عبد القادر: " و ثمة حقيقة لا يمكن إخفائها في الإنشاد الشعري هي تباين طبقة الصوت من منشـــــد إلى آخر، فمن منشد دقيق قوي ، إلى آخر يتميز بصوت أجش إلى ثالث يتميز بصوت هـــادئ ،وغيره يتميز بصوت جهوري ، و يبدو أن ثمة ما ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار، هو العلاقة بين موضوع النص الشعري و طبيعة صوت المنشد فالأغراض الشعرية التي تتسم بطابع القوة لا تتناســـب و الصوت الهادئ أو الصوت الأجش كذلك الأغراض الذاتية فإنها لا تنسجم و الصوت الجهوري أو الصوت الدقيق القوي " [1]

يضيف بعض المريدين:"إن المقياس الأساسي هو الأذن في ممارسة فن السماع فالمسمع المأذون يقبل من طرف المريدين ".

5- وظيفـــة السماع:

يلعب السماع دورا هاما في عدة مجالات منها:

1/دور ترفيهي: التخفيف عن النفس من أشغال الدنيا.

2/دور تربوي:لما تتضمنه القصائد الشعرية من معلومات عن خبايا النفس وضرورة محاربتها و آفات الدنيا و كيف تجنبها.

3/الصور البلاغية

[1]-"العروض و الإيقاع الشعري"،صلاح يوسف عبد القادر،الأيام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة،ط1 مصر 1997 ص178

(أَماَ تَنْظُرُ الطَّيْرَ الْمُقَفَّصَ ياَ فَتىٖ إِذاَ ذَكَرَآلأَوْطَانَ حَنَّ إِلىَ الْمَغْنىَ)[1]

4/يعيد السامع إلى الله و إلى القرآن و إلى الرسول و السيرة النبوية الطاهرة و إلى الحديث النبوي الشريف ويساهم في تقوية الإيمان-القناعة من الدنياوالصبر-والأخلاق الفاضلة.

5/تطويرالشعور الفني:الإيقاع-الأنغام-الانسجام بين صوت المسمع ومحتوى الشعر و اللحن المناسب الذي يثير المشاعر نحو السمو و يؤدّي بالسامع إلى التفاعل مع النغمات بالاهتزاز و الحركة و لهذا سمي وجدا.

فالحداء حسب الإمام الغزالي نغمات موزونة للأرواح ، و يؤثر تأثيرا عجيبا ، إما بحزن أو شعور بالفرح أو النوم أو الطرب فيصل المتأثر إلى درجة تحريك أعضاءه على حسب الوزن باليد و الرجل و الرأس لقول أحدهم:

" من لم يحركه الربيع و أزهاره، و العود و أوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج "[2]

يؤثر السماع بصفة مذهلة في المتلقين فيهتزون أو يضطربون .و هذا ما يسمونه في الطريق الصوفي"الوجد".

أ - الوجـــد:

مفهومه اصطلاحا:

" وجد به وجدا: في الحب فقط، و كذا في الحزن، لكن يكسر ماضيه "[3]

---

[1]- ديوان الشيخ أبي مدين الغوث' المتن الربانية الوهبية في المآثر الغوثية الشعيبية' جمع الشوارمصطفى بن عربي ، مطبعة الترقي بدمشق –سوريا،ط1،1938م،.ص59

2-إحياء علوم الدين:أبو حامد الغزالي ج1 ص147

[3]- قاموس المحيط ،الفيروزبادي، ، ص 476.

يقول الإمام الغزالي في الوجــــد : " و كل ما يوجد عقيب السمــــاع بسبب السماع في النفس فهو وجـــد، فالطمأنينـــة و القشعريرة و الخشية و لين القلب ، كل ذلك وجد "[1]

- أصله من الكتاب الحكيم :

قالَ جلّ و علا:" لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله "[2].

و جاء في ذكر الله الحكيم:" وَ إِذاَ سَمعواُ ماَ أُنْزِلَ إِلىَ الرَسُولِ تَرىَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَمْعِ مِماَ عَرَفواُ مِنَ الْحَقِ "[3]

فيتأثرون بكلام الله الجليل تخشع قلوبهم للرحمان و ترق، فتنهمر الدموع من العين.

يقول سبحانه و تعالى :" تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُوُدُهُمْ وَ قُلوُبُهُمْإِلىَ ذِكْرِ اللهِ "[4].

- أصله مــــن السنة:

روى الصحابة رضي الله عنهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كان يصلي و لصدره أزيز كأزيز المرجل

و ذكر الإمام الغزالي في الإحياء عن وجد الرسول (ص) في القرآن. "و كان عليه الصلاة و السلام إذا مر بآية رحمة دعا و استبشر. و الاستبشار وجد"[5]

1-المصدر السابق ص185

2- ســـورة الحشر، الآية 21.

3- ســـورة المـــائدة ، الآية 83

4- سورة الزمر الآية 23.

5-إحياء علوم الدين ،أبو حامد الغزالي ،ج1،ص 186

و جاء في وجد الرسول صلى الله عليه وسلم لغير القرآن الكريم.ما رواه السهروردي في عوارفه:" وقد روي عن كعب بن زهير أنه دخل على الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد و أنشده أبياته التي أولها: بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ....

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم : " من أنت؟ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمدا رسول الله. أنا كعب بن زهير فرمى رسول الله صلى الله عليه و سلم بردة كانت عليه..."وكان كعب بن زهير مهدور دمه.

و نقل من وجد الصحابة عند القرآن الكثير و كذا التابعين،و منهم من مات في غشيته "

و يذكر أمثلة عن ذلك فيقول:" و من ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا يقرأ " إِنَ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مالَهُ مِنْ دَافِعٍ " [1]

فصاح صيحة و خر مغشيا عليه، فحمل إلى بيته فلم يزل مريضا في بيته شهرا"

فذكر الإمام القشيري في رسالته :" سمعت أباحاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر يقول سمعت عبد الواحد بن علوان يقول :" كان شاب يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئا من الذكريزعق فقال له الجنيد يوما إن فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني فكان إذا سمع شيئا يتغير و يضبط نفسه حتى كان يقطر كل شعرة من بدنه فيوما من الأيام صاح تلفت نفسه ".[2]

1- سورة الطور ، الآية 7

2-الرسالة القشيرية،القشيري ص 337

و قيل: " السماع فيه نصيب لكل عضو فما يقع إلى العين تبكي و ما يقع إلى اللسان يصيح و ما يقع على اليد تمزق الثياب و تلطم و ما يقع إلى الرجل ترقص..."

قام السهروردي رحمه الله بشرح كيفية وقوع الوجد بطريقة علمية بحتة قال :" تارة يعظم وقعه و يتصوب أثره الى فوق نحو الدماغ كالمخبر للعقل فيعظم وقع المتجدد الحادثفتتدفق منه العين بالدمع، و تارة يتسرب إثره الى الروح فتموج منه الروح موجا يكاد تضيق عنه نطاق القالب فيكون من ذلك الصباح و الاضطراب و هذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الحال، و قد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المجال"

يقول الشيخ بومدين الغوث في الوجد : [1]

سُهَادِي وَوَجْدِي وَ اكْتِئَابِي وَ لَوْعَتِي وَ شَوْقِي وَ سُقْمِي وَآصْفِرَارِي وَ أَدْمُعِي

وَ مِنْ عَجَبٍ أَنِي أَحِــنُّ إِلَيْهِــــمُ وَ أَسْــأَلُ شَــــوْقا" عَنْهُمُ وَ هُمُ مَعِي

وَ تَبْكِيـــهُمُ عَيْنِي وَ هُمْ فِي ســَوَادِهاَ وَيَشْكُو النَّوَى قَلْبِي وَ هُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

و يرد على من نكر على الصوفية أحوالهم[2]:

وَ سَل ما لَناَ فِيماَ آدَّعَيْناَ لِأَنَّناَ إذاَ غَلَبَــتْ أَشْــوَاقُناَ رُبَّماَ صِحْناَ

وَ تَهْتَزُّ عِنْدَآلْاِسْتِماَعِ قُلُوبُناَ إذاَ لَمْ نَجِدْ كَتْمَآلْمـَوَاجِيــدِ صَرَّحْناَ

فالوجد الصحيح يطلق عليه أيضا " الوجد الصادق ".

1-آيات المحبين في مقامات العارفين،مصطفى الشوار ص93

2- المصدر نفسه ص60

أما التواجد فهو نفساني و الوجد روحاني و يرفض الأول بحجة أن للنفس حظا فيه إذا نتج عن تكلف.

إن الوجد المتكلف فيه ،فهناك من يسميه التواجد، و يعرفه الهجويري قائلا: "أما التواجد فيعني التكلف بإنشاء الوجد و ذلك باستحضار نعم الله و دلائل وجوده وصفاته سبحانه عزو جل و التفكير إلى الوحدة و البحث عن سلـــوك الأوليـــاء الصالحين.و البعض يمارسون التواجد بطريقة شكلية وتقليدهم بالحركات الخارجية و الرقص و جمال الحركات و التواجد مثل هذا مرفوض "[1]

يقول الشيخ العلاوي [2]

فَالْوَجْدُ فِيهِمْ دَاعِي يَدْعِيهِمْ   يَطْرًا عَلَيْهِمْ فِي ذِكْرِ اللهْ

وَ مَنْ لَمْ يَجِـــدْ فَلْيَتَـــوَاجَدْ   قَصْدا" يَتْعَرَّضْ لِفَضْلِ اللهْ

و يكون التواجد بما يتكلفه العبد من حركات ظاهرة و لذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء في قراءة القرآن أن يتباكى و يتحازن[3].

إن المقامات و الطبوع التي يتبعها المسمع تعبر عن حالات مختلفة و أساسا تترجم حالا باطنيا ،حال السرور الخفيف أو حال الحزن و هي تعد بحق دعوة أو تأشيرة إلى سفر باطني ، فجودة أداء المسمع مرتبطة بجودة السامع و استماعه و لما يقع توافق بينهما تضطرب أعضاء السامع فيقوم ليرقص.

---

1 - Somme spirituelle », Hudjwiri, Ed.Sindbad-Islam,N°129 ,1988p473

2- آيات المحبين في مقامات العارفين،مصطفى الشوار ص93

3"هكذا تكلم الأولياء و الصالحون"،أحمد حسين كعكو، تحقيق حمدي زمم،دار الايمان ط1 سوريا 1990.ص 152

ب/ آثار السّماع في نفسية المريدين:

لقد تبيّن من خلال البحث الميداني وباستعمال أسلوب الملاحظة بالمشاركة مع الفقيرات أو بمقابلتنا لفقراء و مقاديم حلقات الحضرة أو 'العمارة ' دور هذه الخلقات في توفير الراحة النفسية و الاطمئنان للفرد. أثناءها يحاول التملَص للحظات من العالم الكثيف و المادي و من كل الشواغل الدنيويَة بالاحتشاد النَفسي والعصبي عن طريق التعلَق بالله و برسوله صلى الله عليه و سلم و محاولة الذوبان في معانيها و صفاتها،فهي بهذا تعمل على جلاء القلوب و تصفية النَفوس من الأكدار.

و تؤكّد الدكتورة منال عبد المنعم هذا من خلال قولها : " فمنهج الذَكر في الحضرة وسيلة هامَة لتزكية النَفس و تطهير القلب بالتخلَص من كافّة الهموم والشّواغل الدّنيويّة و جميع الأغيار و نقائص النَفس و به أيضاً يمتلئ القلب بالأنوار و الإشراقات الإلاهية "[1].

إن الإنشاد الشعري الصوفي يبعث في الرّوح نشاطاً، و قد عبَر بعض الصَوفية عن أهمية الإنشاد في حلقات الحضرة فقالوا:" إذا اعتبرنا الذَكر روح التصوَف، فالإنشاد روح الذّكر" [2]

هَذاَ السَّماَ عُ الَّذِي تُشْفىَ الصُّدُورُ بِهِ هَذاَ الْحَبِيبُ الَّذِي حَيَّرَ الْفِكْرَاَ
صُوفِيَّةٌ عِنْدَماَ ضــَاَقَتْ صُدُورُهُمْ أَزاَلَ عَنْهُمْ جَمِيعَ الشَّكِ وَ الْكَدَرا[3]

خاتمة:

تعرفنا من خلال هذه المقالة على ظاهرة السماع الصوفي السني في الزاوية المامشاوية المنتمية إلى الطريقة الشاذلية الدرقاوية و بعد تحديد مفهوم المصطلح

1- التصوف في مصر و المغرب"، منال جاد الله عبد المنعم، منشأة المعرف بالإسكندرية،مصر،دت ص238

2-المرجع نفسه

3- روض الرياحين في حكايات الصالحين"،اليافعي،تحقيق محمد عزت دار التوفيقية ،ط1، مصر دت ص11

حيث تبين أنه فن إنشاد يعتمد على الشعر الصوفي و يؤدى بطبوع تعود إلى الفن الأندلسي الأصيل و إلى إحدى روافده وهو فن الحوزي.

قمنا بدراسة الوظيفة الأساسية في هذا الفن و أدواره المختلفة في التربية الدينية الروحية للمريدين وتوصلنا إلى الثمرة الحاصلة لدى المتلقين وهي الوجد وبعد تعريف هذا المصطلـــح و أصوله من القرآن و السنة و آثاره في نفوس المريدين ختمنا بحثنا المتواضع بسؤال-وهو اقتراح في نفس الوقت- نراه مهما و هو: 'إذا كان السماع الصوفي بهذه الدرجة من الفائدة لماذا لا يتم استغلاله في العلاج النفسي و العقلي في إطار الصحة العمومية؟

قائمة المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع
1-"إحياء علوم الدين"،أبو حامد الغزالي، ،ضبط وتوثيق أحمد عناية،أحمد زهرة دار الكتاب العربي ،بيروت لبنان دت
2-"الرسالة القشيرية"، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن،مؤسسة الكتب الثقافية-بيروت-لبنان،ط1،2000م

المراجع العربية:

1-" الأبعاد الصوفية في الإسلام و تاريخ التصوف" آنا ماري شيمل، منشورات الجمل،كولونيا-ألمانيا،2006
2 التصوف في مصر و المغرب"، منال جاد الله عبد المنعم، منشأة المعارف بالإسكندرية،مصر،دت
3- " دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية و آثار رجالها "، عبده الشمالي.
4-"روض الرياحين في حكايات الصالحين"،اليافعي،تحقيق محمد عزت دار التوفيقية ،ط1، مصر دت
5-"العروض و الإيقاع الشعري"،صلاح يوسف عبد القادر،الأيام للطباعة و النشر و التوزيع و الترجمة،ط1 مصر 1997.
6-"موسيقى الغناء العربي"،عبد الحميد مشعل،دار الكتاب العربي،ط1مصر دت
7-"هكذا تكلم الأولياء و الصالحون"،أحمد حسين كعكو، تحقيق حمدي زمم،دار الإيمان ط1 سوريا 1990.

المراجع الأجنبية:

1-« Somme spirituelle », Hudjwiri, Ed.Sindbad-Islam,N°129 ,1988
2-« Le soufisme et la danse chez Djellal eddin Rumi »,Sud. Edition, Tunis,1980

المعاجم:

-"معجم القاموس المحيط"،مجد الدين بن يعقوب الفيروز بادي، دار المعرفة بيروت-لبنان،ط5،2011م

- معجم مصطلحات الصوفية ،أنور فؤاد أبي خزام،مراجعة الد.جورج متري عبد المسيح، مكتبة لبنان ناشرون،بيروت-لبنان،ط1ــ1993م.

الدواوين:

1-"دواوين آيات المحبين في مقامات العارفين"، المطبعة العلوية،مستغانم-الجزائر، ط5،1993م.

2-"ديوان سيدي الحاج محمد بن يلس" مطبعة ابن خلدون تلمسان،جمعه مصطفى بن يلس.

3-"ديوان الشيخ أبو مدين شعيب:المتن الربانية الوهبية في المآثر الشعيبية"،مطبعة الترقي بدمشق –سوريا، ط 1،1938م،جمعه الشوار(مصطفى بن عربي).

الرسائل الأكاديمية:

1- الحضرة في منطقة أولاد نهار-دراسة تاريخية فنية قيداري قويدر-(مخطوط رسالة ماجستير)قسم الثقافة الشعبية ،جامعة تلمسان